

الفصل الثاني وسطية القرآن في الأخلاق

تمهيد:

معنى الأخلاق: يعني بالأخلاق: القوى والسجايا النفسية الراسخة، التي تصدر عنها أنماط السلوك الإنساني الخارجي، من خلال إرادة حرة، وهي تمثل الصورة الباطنية للإنسان، كما أن الخلق يمثل الصورة الظاهرة، وكلاهما يكون حسناً أو قبيحاً، والأصل في الخلق أن يكون اختيارياً يكسب بالتخليق والجهد والمثابرة على التزام جانب التسامي، ولذلك يمدح به الإنسان أو يذم، ويثاب عليه أو يعاقب، بخلاف لخلق فهو فطرة مقسومة محدودة لا مدخل لأحد فيها ولا اختيار، ولا يتعلق بها لذاتها مدح أو ذم، ولا يترتب عليها ثواب أو عقاب^(١).

ومعلوم لدى أصحاب الفطر السليمة أن الله تعالى فطر الإنسان على الخير، وركز في فطرته أصول الأخلاق والفضائل السامية، وركب فيه حب موافقتها، بغض إليه مخالفتها إلا من انتكست فطرته تحت وطأة البيئة، وضلال التربية، وإغواء النفس والشيطان والاختيار (الخلق) حينئذ يكون في اتجاه الإنسان مع أصول فطرته، ومقاومة عوامل التدني والتضليل المذكورة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَتَقْسِمْ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۗ﴾ (٧ - الشمس: ١٠).

والإلهام: إلقاء الشيء في النفس، والمعنى: أفهم النفس الأمرين، أو عرفها حالهما، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكنها من اختيار أيهما شاء، فيفوز من تطهر من الدنيا، ويخيب من طمس فطرته، ومعنى دساها: أخفاها بالفجور والمعاصي.

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٠٨).

والآيات الكريمة تجمع بين الإلهام الإلهي للإنسان بمقتضى فطرته، والجهد الاختياري له في التزكية، أو التدسية.

وواضح أن الله تعالى يدعو إلى طريق الخير بما وصفه بالتقوى، وفلاح صاحبه، ويكره الطريق الآخر بما وصفه بالفجور، وخيبة صاحبه، ولو شاء منعه قهراً، ولكن حكمته اقتضت الاختيار والأخلاق لذلك تمثل جانباً خطيراً في الحياة الإنسانية؛ بل هي إحدى الميزات العظيمة التي تميز الإنسان^(١).

إن الأخلاق كان لها في المنهج الرباني أهمية كبرى، فصاغها على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وبنائها على أساس الحقيقة الكبرى للكون والحياة، وغاية الجنس البشري ومآله، ومهمة وجوده من حيث هو خليفة في الأرض، يقيم فيها شريعة الله ومنهاجه.

ويبين القرآن الكريم مهمة الأخلاق الخطيرة مع الإنسان منذ النشأة الأولى، حين ذكر توبة آدَمَ، وأنه ثاب إلى خُلُقٍ رَضِيَ من أخلاق الإيمان وهو الاعتذار عن الخطأ، والاعتراف به، والافتقار إلى مولاه فقال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَّزَّافِرِينَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ويقارن القرآن الكريم هذا الخُلُقَ بخلق مضاد له وهو الاستكبار والإباء عن أمر الله ﷻ، الذي أهلك إبليس، وطرده من رحمة الله عن سعتها^(٢).

تحديد الأخلاق:

من فضل الله علينا أنه تعبدنا بخلق محدد على السنة الرسل، ولم يتركنا لأحاسيس الفطرة وحدها التي قد تخطيء أو تضل أو تضلل، ولا لنظرات العقول، واجتهاد الأفكار البعيدة عن المنهج الرباني ولذلك تتضارب وتتباعد ويحدث الغلو والجفاء، ويندر في هذا الباب المنهج الوسط، ولذلك فقد عني القرآن به عناية خاصة، وجاءت الآيات تترى توضح هذا المنهج وتدعو إليه، وتربي الأمة عليه، وتحذر مما يضاذه غلواً أو جفاءً، إفراطاً أو تفریطاً.

إننا نحن المسلمون لدينا مرجع تفصيلي واف بصحيح الأخلاق وفاسدها، وما يحمد منها وما يذم، وقد اتفقت على ذلك كلمة الرسل جميعاً، لأن الأخلاق أحد

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٠٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (٤١٠).

الأصول المشتركة التي لا تتغير في دين الله ﷻ^(١).

ولقد جاءت الأخلاق في هذا المنهاج على أسمى درجات السمو والارتقاء، لأن الله ﷻ جعل نفسه (المثل الأعلى) لأخلاق المؤمنين، وطلب منهم أن يتخلقوا على نمط ما أعلمهم عن نفسه جل شأنه من رحمة، وود، وحلم، وعفو، وسخاء، وإتقان، وإحسان، وشكر، وصبر، ومغفرة، وصدق، وعدل، ووفاء بالعهد، بل وبطش بأعداء الحق بعد المطاولة والإعذار، مع ملاحظة الفارق التام بين صفات الخالق والمخلوق في كل شيء. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمُكِيدُ﴾ (النحل: ٦٠).

ولقد نصب لهم من أنفسهم رسله الأكرمين فعصمهم، وطهرهم، وكملهم، وجعلهم (المثل البشري الأعلى) في التخلق بما أمر ورسم جل شأنه، وجعلهم خير قدوة، وأحسن أسوة لقومهم، وللناس أجمعين.

ومن الواضح أنه لا سبيل إلى مقارنة الخلق بالخالق، ففي جانبه تعالى الكمال مطلق، وهو وصف ثابت له، وفي جانبهم الكمال نسبي إضافي، ثم هو لهم غاية تطلب ويسعى إليها، فالرسل يتابعون الترقى نحوها، وعامة البشر يقاومون التدلي، ثم يبذلون الجهد ليلبغوا أقصى طاقتهم من الكمال الممكن لهم. وبذلك أتيح للأخلاق أعلى قدر من السمو والثبات، وإن حسن الخلق بالنسبة للمسلم هدف سامي يحرص عليه قربة لله تعالى لأن هدفه من ذلك رضا الله وطلب ثوابه، والخوف من سخطه وعقابه وبذلك اكتسب هذا المطلب قدسية دينية جعلت مزاولته من أعلى درجات الإيمان قال ﷻ: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»^(٢).

وصار الحرص على حسن الخلق عبادة يستحق بها صاحبها ثواب العابدين لما وراءها من دافع تعبدي يتطلب مرضاة الله، ويجتنب سخطه، وبذلك أصبحت الأخلاق الإسلامية نمطاً فريداً لا يقاربه ولا يدانيه شيء من جگم الحكماء، أو نظر الفلاسفة، أو شرائع المشرعين، أو عادات الأمم وآدابها، إلا أن تكون بقية من الوحي الرباني بقيت بين الناس، أو أثراً من سلامة الفطرة التي فطر الله عليها الناس^(٣).

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤١٠).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان (٥/١١ رقم ٢٦١٢).

(٣) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤١١).

المبحث الأول

أثر العقيدة الفاسدة في انحراف الأخلاق

اختلفت الجاهليات طرائق قديماً في حياتهم العملية، كما اختلفت في عقائدها، فجاءت قيمها وأخلاقها العملية، وشرائعها وعاداتها، صوراً منكراً ناكبة عن الحق، تسحق الإنسان وتشقيه، ونحتاج إلى كتب لو أردنا إعطاء صورة وافية عنها في هذا الباب، ولكننا نختصر الحديث في النواحي الآتية:

أ - الشهوانية المادية:

هذا أول الأشكال التي تغطي بها الجاهلية الحياة العملية نتيجة لتولي الإنسان وضع القوانين والأحكام، وصياغة القيم والأخلاق لنفسه بعيداً عن الضوابط الإلهية الهادية، إن الدستور الرباني قد راعى بحكمة عالية قوى الإنسان الروحية والمادية، فأحل له الطيبات، وحرم عليه الخبائث، ومنحه أو منعه على علم شامل بفطرة الإنسان وخصائصه.

والإنسان حين استخلفه الله في الأرض ركب فيه غرائز وقوى لا تصلح حياته إلا بها، ووازنها في نفس الوقت بتعاليمه الهادية حتى لا تخرج بالإنسان عن المجرى السليم فتدمره، وبذلك يتعدل (الشرع) مع (الطبع) ليحققاً للإنسان أطيب حياة على الأرض، وليقوداه إلى سعادة الآخرة.

ولكن الإنسان لما أعرض عن أمر ربه أبقى الطبع، وأضاع الشرع واستبدل به شرائع وضعية قاصرة وناقصة، فانهارت الموازنة الفذة، لعجز هذه الشرائع عن معادلة الطبع الإنساني، أو التعامل معه على أسس سليمة، وهذا ما حدث هنا:

فحين وجد الإنسان نفسه تتأجج برغبات هائلة من حب التملك، والسيطرة والاستعلاء، والاستمتاع بضروب اللذائذ من طعام وشراب، ورياش، ونساء، إلخ مضى بكل قوته ليحقق رغباته، وقام حينئذ المنهاج الإلهي بأصوله وفروعه ليكون دليله الهادي، وميزانه القيم فاعتدل الميزان.

ثم حين أعطته مناهج الجاهلية بدائلها المظلمة تلاشت روابط الطبع، وسلامة الفطرة فلم يعد يؤمن في ظلام الجاهلية بالخالق الأعلى، ولا الجزاء الأخروي، ولا

مسؤوليته التكليفية السامية... إلى آخره.

بذلك ضعفت ونقصت بواعث الخير والفضائل في نفس الإنسان، وانطلقت كل قوى الشر لا تلوي على شيء تثير الغرائز، وتفجر الشهوات الجامحة، وتكتسح كل عائق في طريقها، وتجعله خادماً لها، ليحقق للشهوات أقصى غايتها بأقل قدر من التصادم بين الرغبات المتلاطمة، التي لا تمل في طلب المزيد والتجديد، حتى تصبح الحياة الإنسانية صورة مشينة موغلة في بهيمة شهوانية، تنخرط بالإنسان في سلك القردة والخنزير؛ بل من المؤكد من الحيوانات من يترفع بفطرته عن مسالك كثير من المجتمعات في ظل الجاهليات النكداء، التي تطبعها بخصائصها.

وقد أجاد الأستاذ أبو الأعلى المودودي^(١) تَكَلَّفَهُ في وصفها فقال: (إن المجتمع الذي يتكون من هؤلاء يكون من خصائصه اللازمة:

١ - أن ينهض ببيان السياسة على قواعد (الحاكمية البشرية) سواء كانت حاكمية فرد أو أسرة أو طبقة، أو حاكمية الجمهور... والقوانين كلها توضع وتغير حسب الرغبات والمصالح، وكذلك الخطط السياسية، فلا يعلو شأن في المملكة إلا لكل من بلغ الغاية في الدهاء والمكر واختلاق الأكاذيب... إلى آخره.

٢ - أن يقوم نظام العمران والحياة الاجتماعية بجملته على أساس حب الذات، وتعبد الشهوات، وتقام المقاييس الخلقية من جديد بحيث لا تحول دون التمتع باللذات.

٣ - كذلك تتأثر الآداب والفنون بهذه العقلية، وتصطبغ بصبغتها وتزداد فيها عناصر الفحشاء والخلاعة كل يوم^(٢).

وعلى هذه النظرة؛ وهذه القواعد قامت مجتمعات الجاهلية في كل مكان، كالليونان والرومان، وقديماً، كالحضارة الأوروبية المعاصرة التي تمثلها أصدق تمثيل، وتزيد عليها بما اخترعته من أساليب في تأصيل مناهجها الضالة.

(١) هو العلامة أبو الأعلى المودودي سيد أحمد حسن مودود مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان أصوله عربية، يرجع نسبه إلى الفاتحين لبلاد الهند، ولد سنة ١٩٠٣هـ، وتوفي سنة ١٩٧٩م بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة والتأليف. انظر: كتاب أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (٨ - ٩).

(٢) الإسلام والجاهلية (٢٠) وما بعدها باختصار.

ونكتفي بضرب مثال واحد وهو نتيجة حتمية لكل الجاهليات في التاريخ^(١)، وخلصته أن برلمان ألمانيا الغربية بتاريخ (١٩٧٣/٦/٩م) وافق بأغلبية ٢٥٤ صوتاً ضد ٢٠٣ على مشروع قانون الحكومة بإجراء تعديلات خطيرة في القوانين المتعلقة بالجنس وفي مقدمتها.

١ - رفع الحظر عن تبادل الزوجات.

٢ - إباحة ممارسة الشذوذ الجنسي بين الرجال بمافقة الطرفين من سن ٢١ سنة.

٣ - السماح ببيع مطبوعات الجنس الفاضحة لأي مواطن جاوز ١٨ سنة^(٢).

وهذه مرحلة لن تقف عندها الحيوانية المادية؛ بل لا بد أن تطلب مزيداً من الانحلال، ثم تلتبس له - بحجة الأمر الواقع - حماية التشريعات والحكومات؛ وقد حدث هذا بالفعل في كثير من المجتمعات الغربية حتى أصبح إلفاً وعرفاً يستغنى بشيوعه عن تشريعه، بل أصبح مذهباً في الحياة، ومنهجاً للقيم تصنف على أساسه المجتمعات ويوصم بالجمود والرجعية من لم يعتنقه فكراً وعملاً؛ بل أدهى من ذلك أن أساقفة الكنيسة الإنجليزية كانوا على رأس مؤيدي القوانين التي تبيح الشذوذ الجنسي بين الرجال (اللواط)؛ مخالفين بذلك دينهم بل كل خلق إنساني شريف^(٣).

ب - الرهبانية السلبية:

وهي الوجه الآخر المضاد للخط السابق، قادت الجاهليات فيه أفواجا من البشر إلى العدم والسلبية، وصادمت الفطرة السليمة التي وقعت دائماً بين امتداد فاحش مدمر، أو تقلص متلف مهلك.

(والرهبانية):

كسابقتها جاءت نتيجة فهم قاصر للكيان الإنساني، ولطريقة التعامل معه، ومن أسباب نشأتها أن فريقاً من البشر نظروا إلى الحياة فوجدوها مليئة بالآلام والمتاعب، فأرجعوا ذلك إلى كثرة الانهماك في الملذات والشهوات، ورأوا أن خير وسيلة تستطيع

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ للندوي، (٤٨). في جاهلية الهند.

(٢) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (١٦٤).

(٣) انظر: المرجع السابق (١٦٥).

الروح أن تنحو بها هي التخلص من مطالب الجسد المادية، وتخفيف ذلك، والتخلص من الرغبات والمنع بالمجاهدات العنيفة، والفرار من الحياة إلى الكهوف، والمغارات والمفاوز، واعتزال الناس قدر المستطاع، وإتباع الجسد، وإحكام الطوق حول النفس حتى لا تنال شهوة أو متعة تطيل شقاءها في هذه الأرض، وبذلك نشأت هذه الرهبانية المذلة المهلكة كرد فعل للشهوانية المتهاكلة والرهبانية غير الزهادة، والتعفف المعتدل، والمجاهدة التي تقوم على بناء محكم لتصمد في وجه المغريات، وهي تشق طريقها في الحياة، كما هو الحال في المنهاج الإلهي الحكيم في كل عصر، وإنما هي فلسفة حياة تقوم على الهرب من الحياة، واطراح تكاليفها، ومما كان له أفدح الآثار على أمم وأجيال ولا يزال وأنكد الرهبانيات جميعاً ما اتخذ سمة العقائد والأديان، وانعكست بذلك سلوك وأخلاق ما أنزل الله بها من سلطان وإذا أردت الاستزادة، فانظر إلى عقيدة الهندوس التي انبثقت منها الرهبانية الهندية التي دستورها مبني على عقائد شركية وعبادة منحرفة، وأخلاق بعيدة عن الصراط المستقيم وتزكيتهم لأنفسهم بُنيت على الزهادة المفرطة بالصوم، وأرق الليل، وتعذيب النفس، حتى يصير أسير الحرمان، ويحمل نفسه ألواناً من البلاء، ويبدو دائماً كثير الأحزان والهموم، والخوف والتشاؤم^(١).

وعندهم في (شرائع منو) القرن الثالث قبل الميلاد: (أن طالب العلم يتجنب الحلوى، واللحوم والروائح الطيبة، والنساء، ولا يكتحل، ولا يلبس حذاء ولا يتظلل بالشمسية، وعليه ألا يهتم برزقه بل يحصله بالتسول).

ومن تعاليمهم أيضاً: (عندما تدخل في الشيخوخة عليك بالتخلي عن الحياة الأهلية، وبالإقامة في الغابة، وإذا أقمت فيها فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك، وشواربك ولا أن تقلم أظافرك).

(عود نفسك على تقلبات المواسم فاجلس تحت الشمس المحرقة وعش أيام المطر تحت السماء، وارثد الرداء المبلل في الشتاء).

(لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر الملذات، ولا تقترب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه)^(٢).

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (١٦٨).

(٢) انظر: مقارنة الأديان (أديان الهند الكبرى)، لأحمد شلبي بتصرف (٦٠ - ٧٠).

وبذلك ظهرت الذلة والمسكنة، والمهانة، والتشاؤم وكثير من الأخلاقيات التي لا تليق بالإنسان بسبب هذا المعتقد الخبيث المنحرف عن هدى الله القويم. إن الله ﷻ يقول في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣) ويقول أيضاً: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَٰعِفًا ﴿٧٨﴾﴾ (النساء: ٢٧ - ٢٨).

والآيتان الكريمتان تقرير من رب العالمين بأن دينه العظيم هو المنجى من مذاهب الانهماك المادي، أو الانهماك البدني، وأنه الطريقة الوحيدة لإنقاذ البشرية من طواغيت المادية الشهوانية التي مالوا بالفطرة ميلاً جائراً حتى طمسوها ومن طواغيت الرهبانية الذين أثقلوها بالأغلال والآصار وحجروا عليها واسعاً من فضل الله العظيم حتى فصموها^(١).

إن القرآن الكريم وسط في باب الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدوها شراً خالصاً، وكانت نظرة القرآن وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان كما صورته القرآن مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هدى للنجدين، وتهاياً بفطرته لسلوك السبيلين، وإما شاكراً وإما كفوراً، فيه استعداد للفجور استعداداً للتقوى، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس: ٧ - ١٠).

والقرآن وسط في نظره إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً صرفاً لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نعمة سماوية.

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (١٦٩).

أما الإنسان في القرآن فهو روح ومادة، لأن الله خلق الإنسان من تراب أو طين أو صلصال وكلها تشير إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه الآية شيئاً آخر، هو سر تميز الإنسان، ومنبع كرامته.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الحجر: ٢٩).

والقرآن وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية، ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأنعام: ٢٩).

وبهذا غرقوا في الشهوات وعبّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا غرضاً يسعون له غير المنافع الفردية الدنيوية الفانية، وهذا شأن الماديين في كل مكان وزمان، وبين الذين رفضوا هذه الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شراً يجب محاربتها والتخلص منه، فحرموا على أنفسهم طبيباتها؛ وزينتها، وفرضوا عليها الابتعاد عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالقرآن اعتبر الحياتين، وجمع بين الحسنيين، وجعل الدنيا مزرعة للآخرة، والعمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات^(١).

يقول الله في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿يَذَرِيْنَ مَادَمَ حُدُوْدَ زَيْتُوْنِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٣١﴾﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢).

ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول:

﴿فَقَالَتْهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (آل عمران: ١٤٨).

ويعلم المؤمنين هذا الدعاء الجامع لحسنتي الدارين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا

(١) انظر: الخصائص العامة في الإسلام (١٣٩).

ءَايَاتِكَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٧٦﴾ (البقرة: ٢٠١).

المبحث الثاني

القرآن الكريم والسنة النبوية مصدر الأخلاق الإسلامية

والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان سمات الشخصية الإسلامية؛ حتى تظهر متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقها، وإذا التبست على غيرها المسالك واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعتني ويهتم بتوضيح السمات الأساسية لخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلية الفردية والاجتماعية^(١).

حتى أننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (لقمان: ١٩)، ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) وأدب التزاور إذا تزاوروا ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا عَنْ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ ﴿٧٨﴾﴾ (النور: ٢٧-٢٨).

وأدب الجلوس إذا تجالسوا: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَعُّوا فِي الْمَجَالِسِ

(١) انظر: الخصائص العامة في الإسلام (٤٣).

فَأَسْحُوا يَسْحَ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ (المجادلة: ١١).

فضلاً عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالأكل والشرب، واللباس والتجمل، والنوم واليقظة، والدخول والخروج، والسفر والعودة والتحية والاستئذان، حتى العطاس والتشاوب وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة.

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام، ليس هو اللذة والمنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العرف ولا المجتمع ولا التصور ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية، مثالية وواقعية، وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي - في الأساس - هو الوحي الإلهي.

فالخير ما أمر الله به، والشر ما نهى الله عنه، وبعبارة أخرى: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحسين ما قبحه العقل، أو تقبيح ما يحسنه، فلم يعرف ذلك في الأخلاق الإسلامية، ولا في الشريعة الإسلامية كلها فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة، وموافقة للعقل الرشيد.

ولا غرو أن أطلق القرآن على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف ﴿يَتَأْتُوا الْأَنْبِيَاءَ﴾ كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُصَلِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١).

ولذلك تجد أن الأخلاق في الإسلام، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم، والتكليف التعبدية، بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، في أخلاق مفهومة معللة بالحكم، والمصالح المترتبة عليها في الدنيا والآخرة.

من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه:

﴿يَبْنَؤُا فِرِ الصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلٰى مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۗ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٧ - ١٩).

ومثل ذلك في الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

المبحث الثالث

من وسطية القرآن في الأخلاق الشمولية

إن الأخلاق في القرآن الكريم لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية، أو جسمية، دينية، أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل، للسلوك الرفيع، يختلف عما رسمه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، حيث إن القرآن الكريم والسنة النبوية رسمت منهجاً متكاملًا شاملاً واقعيًا في مجال الأخلاق منسجماً، متناسقاً مع طبيعة الإنسان وإليك التفصيل كما جاء في الكتاب المبين.

١ - الأخلاق التي تتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

أ - جسماً له ضروراته وحاجاته.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

ب - عقلاً له مواهبه وآفاته:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

ج - ونفساً لها مشاعرهما ودوافعهما وأشواقهما: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٢﴾﴾ (الشمس: ٩ - ١٠).

٢ - ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالأسرة:

أ - كالعلاقة بين الزوجين: ﴿وَعَايَرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

ب - وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ (الأحقاف: ١٥). ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ حَسِيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرُفُّهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْأًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١).

ج - كالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) ﴿وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (الإسراء: ٢٦).

٣ - ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالمجتمع:

أ - في آدابه ومجاملاته، مثل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَعَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ حَيْثُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (النور: ٢٧).

ب - وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ (المطففين: ١-٣) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَهَ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُوبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴿٢٨٢﴾﴾ (البقرة: ٢٨٢).

ج - وفي سياسته وحكمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ءَآمَنَاتِكُمْ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

٤ - ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكير والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته كما قال تعالى: ﴿إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلنَّجْمِ ٱلنَّجْمِ ٱلنَّجْمِ وَٱلنَّهَارِ لَآيٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقِعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطْلًا سُبْحٰنَكَ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

٥ - وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم ﷻ: الذي منه كل النعم وله كل الحمد:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ أَهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾﴾ (الفاتحة: ٢-٦).

فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله، وأن ترجى رحمته الواسعة، وأن يخشى عقابه العادل يوم الجزاء، وهو وحده الذي يستحق أن يعبد، ويستعان، وأن تطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم^(١).

إن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد عليم لذلك نظرته شاملة جامعة محيطه

(١) انظر: الخصائص العامة في الإسلام (١٢٠).

مستوعبة في كافة الأمور الأخلاقية وغيرها لأنه وحي من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

المبحث الرابع ومن وسطية القرآن في الأخلاق الواقعية

إن منهج القرآن في الأخلاق واقعي، يراعي الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترف بالضعف البشري، وبالذوافع البشرية، وبالاحتياجات الإنسانية؛ نفسية أو مادية لم يوجب القرآن الكريم ولا السنة النبوية على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشتة، كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتباعه: بع مالك واتبعني، ولا قال القرآن ما قال الإنجيل: (إن الغني لا يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط).

١ - بل راعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، فاعتبره قواماً للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وامتن القرآن بنعمة الغنى والمال في غير موضوع، وقال الله لرسوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٨).

٢ - ولم يجيء في القرآن ولا في السنة ما جاء في الإنجيل في قول المسيح: (أحبوا أعداءكم من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر... ومن سرق قميصك فأعطه إزارك). فقد يجوز هذا في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، ولكنه لا يصلح توجيهاً عاماً خالداً، لكل الناس في كل عصر، وفي كل بيئة، وفي كل حال، فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه، قد يكون شيئاً فوق ما يحتمله، ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبتة بالعدل مع عدوه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

كما إن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على الناس أن يفعلوه، وربما جراً الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار، وقد يتعين في بعض الأحوال ومع بعض الناس، أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغياً وطغياناً.

ولهذا تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان،

فأقر بذلك مرتبة لعدل، ودرء العدوان ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء، على أن يكون مكرمة يرغب فيها، لا فريضة يلزم بها^(١).

هذا واضح في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

ومن وسطية القرآن في الأخلاق: أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاز عما نهى عنه من نواهي والتقيّد بالمثل العليا.

فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها. وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم.

فالظالم لنفسه هو: المقصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات وعلى ترك المحرمات، وإن فعل المكروهات.

والسابق هو: الذي يزيد على فعل الواجبات، أداء السنن والمستحبات، وعلى ترك المحرمات وترك الشبهات، والمكروهات؛ بل ربما ترك بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره، وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢) فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة - على تفاوت مراتبهم - من الأمة التي اصطفاه الله من عباده، وأورثها الكتاب.

ومن وسطية الأخلاق في القرآن لم تتصور في أهل التقوى أن يكونوا سالمين من

(١) الخصائص العامة في الإسلام (١٦٦).

كل عيب، بعيدين عن كل ذنب، كأنهم هم ملائكة أطهار؛ بل قدرت حقيقة الإنسان وطبيعته البشرية، المركبة من الروح والطين، فإذا كانت الروح تعلق به مرة، فإن الطين يهبط به تارة، وفضل المتقين على غيرهم إنما في التوبة والرجوع إلى الله عند ارتكاب الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخْسِرَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (آل عمران: ١٣٥).

ومن واقعية الأخلاق القرآنية التي تدل على وسطيته: أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يباح في ظروف السلم كهدم المباني، وتحريق الأشجار ونحوها^(١).

ومن وسطية القرآن في الجانب الأخلاقي جعل المولى ﷺ أمهات الأخلاق والفضائل واضحة في أذهان المسلمين، أمهات الفضائل التي أمر الشارع بها، وحث عليها معروفة غير منكورة، وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها، معلومة غير مجهولة.

فلا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين، وبذي القربى واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل. ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة، والوفاء، والصبر، والعفاف، والحياء، والسخاء، والشجاعة، والحلم، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى.

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان، وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربا، وأكل مال اليتيم.

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض الله الحدود عقوبة عليها، مثل قتل النفس عمداً، والسعي في الأرض فساداً بقطع الطريق وترويع الأمنين، والسرقه والزنى، وقذف المحصنات الفاضلات المؤمنات، وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة، ومنزلته في

(١) الخصائص العامة في الإسلام (١٦٨).

الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وترزقهم، والصوم تربية للإرادة، وتعليم للصبر، والحج تدريب على التحمل والبذل^(١).

المبحث الخامس علاقة الأخلاق بالعبادة والعقيدة

إن المنهج الرباني الحكيم، يعرض الأخلاق ممزوجة بالعقائد والعبادات والأعمال الطيبة جميعها في سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، يوضح لنا صفات المؤمن التقي البار الطيب، ونجد ما ذكرته في آيات سور شتى، ومن الأمثلة في القرآن الكريم على ما قلت قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ بِقَلِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرِّسَالِ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُرُوفَاتِ يَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة: ١٧٧).

وجمعت الآيات أمور العقيدة متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة وكتاب والنبين، وأمور في العبادة متمثلة في إيتاء المال على حبه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الأخلاق التي تتجلى في الوفاء والصبر.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدْ فِيهِ ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِبَآئِتٍ رَّبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ

(١) الخصائص العامة في الإسلام (١٩٣).

يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ أُولَئِكَ
يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُلَاقُونَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٦﴾ (الفرقان: ٦٣ - ٧٥).

وقد جمعت الآيات السابقة الأخلاق والعبادة والاعتقاد.

إن علاقة الأخلاق بالعقيدة واضحة في كتاب الله، وقد بين ﷺ الأخلاقيات
الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله والأخلاقيات الجاهلية التي
ينبغي أن ينبذها المؤمنون. والحقيقة أن التنديد (بأخلاقيات) الجاهلية قد بدأ من اللحظة
الأولى، مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية.

إن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين
من نطاقات السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنه شاملة للسلوك البشري
كله كما أن المظاهر السلوكية كلها، ذات الصبغة الخلقية الواضحة، هي الترجمة العملية
للاعتقاد والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير
فحسب...

إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك
العملي أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى
سلوك؟^(١).

فمن وسطية القرآن في باب الأخلاق ربط الأخلاق بالعقيدة قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١ - ١١).

فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ثم
تصف هؤلاء المؤمنين ذلك الوصف المطول المفصل الذي يعنى بإبراز الجانب الخلفي
لأولئك المؤمنين، موحياً بإحياء واضحاً أن هذه الأخلاقيات من جهة هي ثمرة الإيمان،

(١) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب (١٣٠).

وأن الإيمان - من جهة أخرى - هو سلوك ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة.

إنهم بادية ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أول مظهر للمؤمن الصادق: أن تكون صلاته - وهي اللحظة التي يقف فيها متعبداً لربه، ذاكرةً له في قلبه، متصلاً به بروحه - تكون صلاته هذه خاشعة بما ينبيء عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة ثم تثني الصورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة، هي أنهم عن اللغو معرضون. فاللغو لا ينبيء عن نفس جادة. والإيمان الصحيح يورث النفس الجدد، بما يشعرها من ثقل التكليف وجدبته والجد ليس تقطياً دائماً ولا عبوساً، ولكن اللغو من جانب آخر لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه ثم إن هؤلاء المؤمنين لا بد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم، وهو الزكاة.

ولا بد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس فلا يتعدون حدود الله وملتزمين بأوامره في علاقتهم (الاجتماعية) فيحفظون الأمانة ويرعون العهد. وبهذا يتضح أن الأخلاق ثمرة طبيعية للعقيدة الصحيحة، وكذلك العبادة الحية الخاشعة لله من ثمار العقيدة الصحيحة.

واتضح لنا أيضاً: أن القرآن يرسم لنا صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول معلم واضح فيها؛ فانظر كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين، وأول وصف لهم الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى.

ومن وسطية القرآن الكريم إبراز جانب العبادة أحياناً، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَنْعَارِ هُمْ يَسْتَفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾﴾ (الذاريات: ١٦ - ١٩).

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيْتَ أَوْلَىٰ بِالَّذِينَ هُمْ عَنْهُ الدَّارِ ﴿١٩﴾﴾

(الرعد: ١٩ - ٢٢).

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية - لمناسبة أولي الأبواب - مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق... لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق (مدنية) وإنما هي أخلاق ربانية أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى، فهم إنما يوفون (بعهد الله) وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وهم إنما يصبرون ﴿أَتَبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر^(١).

وخلاصة ما نقوله هنا:

أن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوفير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس.

من أجل ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الآيات: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقتها - بل جعلت مقصورة عليهم - لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين. وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونهاً من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة.

فهي - كما ذكرنا - أخلاق ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة وغرضها رضوان الله ومثوبته، فهو يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، ويفي بالعهد، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويغيث الملهف، ويعين الضعيف، ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرعى الفضيلة في سلوكه، كل ذلك ابتغاء وجه ربه، وطلباً لما عنده تعالى. وقد ذكرنا في ذلك آيات من القرآن، وإليك ما وصف الله به الأبرار من عباده من البذل والرحمة والإيثار، إذ قال: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

(١) انظر: العبادة في الإسلام، للشيخ القرضاوي حفظه الله ص(١٢٣).

﴿٨﴾ (الإنسان: ٨) ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم، وطوايا نفوسهم، فيقول معبراً عن لسانهم: ﴿إِنَّمَا تَطْعَمُكَ لِيُؤْتِيَكَ اللَّهُ لَا تُرِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ (الإنسان: ٩ - ١٠).

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى، لأن مقياسه في الفضيلة والرزيلة، ومرجهه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال^(١).

والعقل وحده ليس بمأمون، لأنه محدود بالبيئة والظروف، ومتأثر بالأهواء والنزاعات، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخلقى دليل واضح على ذلك. والعرف لا ثبات له ولا عموم، لأنه يتغير من جيل إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى، ولا يتأثر ولا يجور، وذلك هو حكم الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

إن الأخلاق في المفهوم القرآني شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومناعره وتفكيره.. حتى الهاجس الذي يهجس داخل الضمير فهي ليست محدودة بمساحة معينة ولا بعمل معين... ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق، فالصلاة - كما رأينا - لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء بالأمانة ورعاية العهد، والإنفاق له أخلاق هي التوسط بين التقدير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق هي الانتصار أي رد العدوان... وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

هذا أمر... والآمر الآخر - وهو الأهم - أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست للبشر، ولا لأحد غير الله: فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله، واتقاء المحرمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله

(١) انظر: الإيمان والحياة، للقرضاوي، (٢٥٦).

كلها عبادة لله، تقدم لله وحده خشية وتقوى، وتطلعاً إلى رضاه. إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة، إنما هي صفقة تعقد مع الله^(١).

قال تعالى: ﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ لِمَا كَرَّمْتُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَشْكُرُونَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تَقُولُوا أَوْلَادُكُمْ مِنْ أَمْلِكِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ وَإِسَابَتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّمَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَنَّمَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَنَّمَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

ذلك هو الميثاق الأخلاقي الشامل الذي يلتزم به المؤمن اتباعاً لصراط الله المستقيم، فهو إذن جزء من العقيدة، مرتبط بها ارتباطاً أساسياً لا ينفصل عنها بحال.

إن الصراط المستقيم هو عين الوسطية إن الأعمال الخلقية تدخل في جميع الجوانب، ويرتقي بها الوحي الإلهي إلى ذروة متفردة حين يجعلها ديناً، وعبادة، ومحلاً لثواب الله تعالى؛ أو عقابه الأليم عند المخالفة.

وتأمل معي الآيات القادمة حتى تكون الصورة واضحة في الأذهان قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ اللَّهُ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا لِنَعْمُدَنَّكُمْ دَخَلْنَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٥٣﴾ (النحل: ٩٠-٩٢).

فهذه أربعة من أصول الخير يأمر الله تعالى عباده أن يتخلقوا بها، ويقرنها بأربع من (خلاق السوء) التي تدمر الأفراد والمجتمعات فينهى أشد النهي عنها، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه عن أول آية (هي أجمع آية في القرآن للخير والشر).

(١) انظر: دراسات قرآنية، لمحمد قطب (١٣٩).

إن الله ﷻ أورد هذه الألفاظ الجامعة على علم وحكمة، فيأمر بالعدل وهو ضد الجور، أو بمعنى الاعتدال والتوسط الجامع لمحاسن الصفات المتعارضة، أما الإحسان فهو مرتبة فوق العدل، إذ يراد به الفضل كأن يعفو عن حقه، أو يأخذ دون أجره، أو يؤثر على نفسه، أو يراد به الإتقان في سلوك الخير، واختيار الأحسن في الأخلاق، وكذلك (إيتاء ذي القربى) كلمة على غاية من الإيجاز والإعجاز فتشمل كل إيتاء كالبذل المالي، والتعهد بالسؤال، والمودة، واللقاء بالبشاشة، وغير ذلك من ضروب العطاء المادي، والمعنوي (والوفاء بالعهد)، خلق أساسي من أخلاق الفرد والجماعة لا تستقيم الحياة إلا به، وهو يدل على الإيمان، كما يدل نقيضه على النفاق والفسوق^(١).

وأما الكلمات الموبقات هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي، والنقض لم تترك من أمر القبائح شيئاً بضروبها الفردية والاجتماعية، وما يتعلق بالنفس أو بالغير، ويتصل بالأعراض وما دونها، مما يحرص عليه الإنسان، ويتميز به عن سائر الحيوان بعديد من الأمور:

منها إسناد الأمر والنهي إلى ذاته العليا ترغيباً وترهيباً، ومنها التصريح بلفظ الأمر والنهي: (يأمر، وينهى) أو بصيغتهما: ﴿وَأَوْفُوا﴾ و﴿وَلَا تَنْقُضُوا﴾ مع ما أرفده من ذكر الوعد - وهو النصيحة - ليحرك النفوس إلى الاستجابة، تلطفاً منه في الاستدعاء، ومنها تذكيرهم بعلمه المحيط: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

ومنها إبراز النكت بالعهود على أشع صورة، إذ يضرب له مثلاً محسوساً يتقرر به في النفوس على هيئته المنفرة، المشبهة بمرأة خرقاء تكد في الغزل كذاً حتى تبرمه وتحكمه، ثم تعود فتنقضه نقضاً وتجعله ﴿أَنْكَنًا﴾ أي طاقات متفرقة، ومنها ختم الآيات بذكر القيامة وهو استخدام للعقيدة في موطنه، ليصل بالتأثير إلى أغوار النفس الإنسانية فتتهز للنصح الإلهي من أعماقها، وتكون في أرجى أحوالها امتثالاً واستجابة.

وهكذا ترتفع الأخلاق إلى أعلى المراتب في استمداها - أمراً ونهياً - من الله العلي الكبير، فتصبح على مستوى العبادة العليا، وتحشد لها في الآيات كل وسائل التأكيد والتأثير حتى ضرب الأمثال رحمة منه تعالى لعباده، وحرصاً على هدايته، واستنقاذهم من سوء الأخلاق، وسوء الأحوال وضماناً لاستقرارهم على وجه طيب في

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤١٩).

الحياة... ولذلك ختمت الآيات بهذه المعاني البينة من قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قدمٌ بعد بُوتِهَا وَتَدْرُفُوا أَسْوَأَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ (النحل: ٩٤).

والمعنى:

لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للغدر والفساد فتتزلزل قواعد القيم في المجتمع، وتتزلزل أقدامكم إلى الشك والحيرة في علاقاتكم تبعاً لذلك، بعد أن كانت ثابتة بثبات القيم الأخلاقية، ويصيبكم سوء الدنيا والآخرة لأنكم عرضتم عن تعاليم ربكم^(١).

وعلى العكس من ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧) وهو بيان لسنة الله تعالى الماضية في ضمان سعادة الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً وتخلق بأخلاق هذا المنهاج الإلهي العظيم، حيث تقوم الحياة الطيبة على الثقة، والطمأنينة، وعدم المكر والغدر، ولأجر الآخرة أذكى وأطيب على أن هذه الأصول المجملة الجامعة جاءت بالتفصيل في القرآن الكريم مع التحديد فمثلاً:

أ - أمر الله تعالى بالعدل في الأقوال:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢). والعدل في الحقوق والأموال وكتابة الدين: ﴿وَلْيَكْتَسِبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾. وإملاء: ﴿فَلْيَمْلِكْ وَرِيثُ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وشهادة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِالْفِئْتِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) وهذا عدل مع النفس والأولياء مهما تكن النتائج، وهو بذاته العدل الذي أمرنا به مع الخصوم والأعداء، وجعل من صميم الدين والعبادة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شَهَادَةً بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (المائدة: ٨) وغير ذلك.

ب - والفحشاء:

جاء تفصيلها في أمور مثل، الزنى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً﴾ (الإسراء:

(١) المنهاج القرآني في التشريع (٤٢٠).

مَسْؤُورًا ﴿٣٧﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ
 كَانَتْ مَشْؤُولًا ﴿٣٨﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٩﴾ وَلَا
 تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴿٤٠﴾ وَلَا تَمْشِ فِي
 الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٤١﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
 مَكْرُوهًا ﴿٤٢﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٣٨).

إن الله ﷻ، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج
 الخلقي الذي رسمته الآيات مدحاً وذكماً، لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي
 أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس،
 كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول،
 مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غروراً وأنفة، أو الولوع بالمراء
 والجدل بالباطل مغالبة وتطلعاً للظهور، أو تقليداً وجموداً على الإلف والعرف مع
 ضلاله وبهتانه، وكلها - وأمثالها - أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعد
 ما تبين، وعن سعادة الدارين من استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها.

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خلقية متعددة الجوانب في شؤون الأسرة مثل بر
 الوالدين، وما جاء فيه من وصايا غاية في السمو والإحسان والوفاء بالجميل، ومثل
 الأقارب والضعفاء، وفي شؤون المال والإنفاق بالنهي عن التبذير، والأمر بالاعتدال
 بين الشح المطبق والبسط المستغرق، وقد نفر الله عن التبذير بإضافته إلى شر الخلق:
 ﴿إِنَّ الْبَدْرَيْنَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ (الإسراء: ٢٧) ونفر من الحرص والإمساك عن الإنفاق
 بتصويره على أشبع مثال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ (الإسراء: ٢٩).

وتأمر الآيات الكريمة بخلق جميل غاية في السمو وهو الحرص على الكلمة
 الطيبة، والعدة الجميلة إذا لم يجد الإنسان من المال ما يسع به الناس: ﴿وَأِمَّا تَرَضْنَ
 عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّسْؤُورًا﴾ (الإسراء: ٢٨) وهي وصية ذات
 أثر بالغ في إحسان العلائق بين الناس، بل ربما فضلها على العطاء المادي خاصة إذا
 اقترن بالمن والأذى ثم تتحدث الآيات عن سوء الخلق بالبغي والاستطالة، وقساوة
 القلب، وجفاف الرحمة، وجمود العاطفة الكريمة، ويتمثل ذلك في مظهره الجنائي وهو
 القتل، وخاصة قتل الابنة الصغيرة.

نعم القتل جريمة جنائية تسلك في قانون العقوبات القصاصية، ولكنها هنا تعالج من زاويتها الأخلاقية التي تستهدف الوقاية، وتعمل على تغيير الإرادة، وتوجيهها وجهة صالحة بتحريم الفعل، وتجريمه، وإصلاح عقيدة صاحبه ﴿تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكَ﴾ وبهدم القيم الاجتماعية الجائرة التي صنعت هذا المنكر، وسوغته بلا نكير وتنتهى الآيات عن الزنى وهو بنفس المقياس جريمة خلقية أساسها البغي والاستطالة على الأعراض والحرمان، وإهدار العفاف والشرف، والاستهتار بكل كريم من القيم الإنسانية العليا، وتأمير الآيات وتنتهى عن أمور مردها إلى خلق الأمانة أو الخيانة، والجد أو العبث، والتواضع العزيز أو الكبر الغرور:

فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتى يبلغ أشده، والوفاء بالعهد وتوفيه الكيل والميزان والخيانة أضدادها.

ومن الجد اشتغال الإنسان بما يعنيه، وعدم تتبعه ما ليس له به شأن ولا علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦) والعبث كل العبث اشتغال الإنسان بما نهى عنه.

ومن التواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده، ومعرفته قدر نفسه فيضعها في مواضعها الصحيحة.

ومن الكبر والغرور ذلك التناول المبني على الجهل والطيش والحماسة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

ولأن هذه وصايا جامعة لكل ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (الإسراء: ٣٩) فسامها حكمة، والحكمة كما علمنا من أبرز ملامح الوسطية، وختمها بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك كما بدأها لأن الإيمان بالله تعالى مفتاح كل خير وحافظه وحارسه، والكفر به مفتاح كل شر وباعثه ومحركه^(١).

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته: أنه يصدر هذه الآيات الأخلاقية بتقرير:

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٢٥).

(التوحيد والعبودية) لله تعالى، وهذا بدوره تأكيد أساسي على حقائق وأصول هذا المنهاج القرآني، التي تتبع جميعها هذا المدخل التأسيسي وبذلك يتقرر.

أ - أن الله تعالى هو وحده مصدر الشرائع جميعاً، وهو شارع القيم والمعايير الأخلاقية، والتي تنسجم مع الفطرة، وتوافق العقل الراجح.

ب - أن الأخلاق دين ملتزم به؛ بل هي أصل من أصول المنهاج الإلهي، وليست مجرد فضائل فردية، أو آداب اجتماعية، أو أذواق حضارية... إلخ.

ج - أن الأخلاق قيم أساسية في حياة البشر يبغى أن تحظى بالثبات والاستقرار، وبالتالي يمنع الطواغيت من التلاعب بها، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء والنظريات... إلخ.

٤ - وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذة التي تعطي أسمى التوجيهات في باب الفضائل، والآداب الفردية والاجتماعية والتي لم تبلغ سفح ذراها أرقى المجتمعات في أمم الحضارة قديمها وحديثها، وحقاً إنها كما وصفها ربنا: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨).

فهذا جزء من الأخلاق القرآنية أردت به التمثيل وليس الاستقصاء، وفي سنة رسول الله ﷺ وهدية مزيد من التفصيل والبيان، وإن هذا الخلق الإسلامي نمط فريد وعجيب، ليس له مقارب ولا نظير، لأنه من رب العالمين، وقد تفرد بأمور وخصائص زاد من قوتها واكتمالها وجودها مجتمعة على هذا الوجه المحكم ومنها:

أ - وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهاج الرباني متمثلاً في الكتاب والسنة، وقد حدا ما يحمد أو يذم.

ب - وجود ما يضبط السلوك ويبعث على العمل، وهو رجاء الله والدار الآخرة.

ج - وجود القدوة العملية وهي من أسس التربية الخلقية، وقد تمثل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ولذلك جعله قدوة المؤمنين وأسوتهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) وجعل أصحابه أنفسهم قدوة

للعالمين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

أساليب التأثير والاستجابة والالتزام التي تحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي سواء كانت اعتقادية كمراقبة الله تعالى ورجاء الآخرة، أو عبادية كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس. ومن هذه الحوافز الإلزامية ما يأتي من خاج النفس متمثلاً في:

أ - التشريع: الذي وضع لحماية القيم الخلقية كشرائع الحدود والقصاص التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل أو بالسرقة) وانتهاك الأعراض: (بالزنى، والقذف) أو البغي على النفس وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

ب - سلطة المجتمع التي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسؤولية بعضهم عن بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤولية قريبة الزكاة، والصلاة، وطاعة الله ورسوله:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (التوبة: ٧١).

بل جعلها المقوم الأصلي لخيرية هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

ج - سلطة الدولة التي يوجب قيامها، وقيمتها على أسس أخلاقية وطيدة، ويلزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق وتبناها في سائر أفرادها ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته.

وبذلك يجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كلها، ويصبح - حين يفيق المسلمون - نظاماً واقعياً مثالياً في توازن عجيب نلمس منه أثر الالتزام بالمنهج الرباني^(١).

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٣٣).

المبحث السادس

علاقة الأخلاق بالقصص القرآني

إن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم والأصول العقيدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أموراً تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين، وإنما هي أعلى، وأشرف وأفضل من ذلك فالقصص القرآني مليء بالتوحيد، والعلم ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصة يوسف عليه السلام متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في مشاهدتها الرائعة قال علماء الأخلاق والحكماء: (لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته، وإن كان رئيساً فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال إذ قد حاز الملك والنبوة ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلمين الساعين للفضائل)^(١).

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

- ١ - العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِنِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).
- ٢ - الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف: ٧٧).
- ٣ - وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ

(١) تفسير القاسمي: (٣١٠/٩).

آتُونِي بِأَخْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآ تَرَوْتَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٥٩﴾ (يوسف: ٥٩ - ٦٠) والصدر للين والعجز للشدّة.

٤ - ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه:

﴿قَالَ أَجْمَلِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ (يوسف: ٥٥).

٥ - قوة الذاكرة ليمنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨).

٦ - جودة المصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤٤).

٧ - استعداده للعلم، وحبّه له، وتمكنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف: ٣٨).

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١).

٨ - شفقتة على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ﴾ (يوسف: ٣٩) وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْفَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ (يوسف: ٣٧) والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (يوسف: ٣٧) وشهدا له بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦).

٩ - العفو مع القدرة: ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢).

١٠ - إكرام العشيرة: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف: ٩٣).

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ

إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ (يوسف: ٥٤).

١٢ - حسن التدبير: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ (يوسف: ٤٧) تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العلم.

إن هذا التأمل المطلوب يدلنا على مدى العلاقة بين الأخلاق والقصاص القرآني، ويتضح للقارئ أن من أهداف القصاص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيده الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والأمة.

كما أن من أهداف القصاص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سبباً في هلاك الأمم والشعوب.

فهذه بعض الأخلاق الفاضلة التي استنبطت من سورة يوسف ﷺ، جاءت لتربي الأمة، وتدلها على الاستقامة، وتضعها على الصراط المستقيم بحكمة واعتدال، وأرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت في بيان المنهج القرآني في باب الأخلاق الذي هو المنهج السوي لما يجب أن تكون عليه أخلاق المسلم ومعاملاته، بعيداً عن الغلو والجفاء مصيباً للمنهج الوسط في هذا الموضوع المهم.

المبحث السابع

خلق النبي ﷺ القدوة المثلى

إن الله ﷻ أكرم نبينا محمداً ﷺ بأخلاق رفيعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾ (القلم: ٤) قال ابن عباس ومجاهد: (لعلى دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام)^(١).

وقال الحسن ﷺ: (هو آداب القرآن)^(٢).

ومعنى الآية واضح أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن^(٣).

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٦٥٣/٢)، لعبد المنعم صالح العزي.

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٦٥٣/٢).

(٣) المرجع السابق (٦٥٣/٢).

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(١).

وقد جمع الله تعالى لنبينا ﷺ مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ولا ريب أن للمطاع من الناس ثلاثة أحوال:

أحدهما: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له مال، ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذا واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه الإعراض عنهم، وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

قال مجاهد في معنى الآية: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعداء، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم^(٢).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وهو كل معروف وأعرفه التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد^(٣). ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/١٤).

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٦٥٥/٢).

(٣) المرجع السابق (٦٥٥/٢).

الْجَهْلِيَّاتِ ﴿ (الأعراف: ١٩٩) يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

وهكذا كان خلقه ﷺ: قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»^(١).

وقال: «ما مَسِسْتُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شَمِمْتُ رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته، لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟»^(٢).

وأخبر رسول الله ﷺ: «أن البر هو حسن الخلق» عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٣).

فقابل البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، والإثم حواز الصدور، وهذا يدل على أن حسن الخلق الدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم^(٤).

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على حسن الخلق ويحثهم عليه ولذلك نجد كثيراً من الأحاديث في فضل حسن الخلق:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء»^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم

(١) صحيح البخاري، كتاب الآداب، باب الكنية للصبي، (١٥٤/٧) رقم (٦٢٠٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٢٠١/٤) رقم (٣٥٦١)، ومسلم في (٢٣٣٠).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في البر والإثم، (٥١٥/٤) رقم (٢٣٨٩).

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٦٥٥/٢).

(٥) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٣١٩/٤) رقم (٢٠٠٢).

والفرج»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»^(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»^(٤).

فجعل البيت العلوي جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة وهي حسن الخلق، والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله^(٥).

وعن جابر رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم: «إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»^(٦).

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية.

والمتشديق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاضماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. والمتفيهق: وأصله: من الفهق، وهو الامتلاء^(٧).

- (١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٤/٣١٩ رقم ٢٠٠٤).
- (٢) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان، (٥/١٠ رقم ٢٦١٢).
- (٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في حسن الخلق (٤/٢٥٢ رقم ٤٧٩٨).
- (٤) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المراء (٤/٣١٥ رقم ١٩٩٣).
- (٥) تهذيب مدارج السالكين: (٢/٦٥٧).
- (٦) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٤/٣٠٥ رقم ٢٠١٨).
- (٧) تهذيب مدارج السالكين: (٣/٦٥٧).

المبحث الثامن

نظرة العلامة ابن القيم إلى حسن الخلق

إن ابن القيم رحمته الله تميز في كتابته عن غيره في باب الأخلاق والتزكية واشتهر بقوة حجته ودليله في عرضه للمسائل وله كلام نفيس جميل في حسن الخلق، فتكلم عن الأخلاق الأساسية التي استنبطها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وجعلها أركاناً لازمة لحسن الخلق، وبين أن منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأركان. فقال رحمته الله: «وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل».

فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبايح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

والشجاعة تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتها، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش، كما قال النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

وهو حقيقة الشجاعة وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس. ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة^(٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (١٢٩/٧ رقم ٦١١٤).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٦٥٨/٢).

ومن كلام ابن القيم يتضح لنا أن التوسط أحد أركان أربعة يقوم عليه حسن الخلق، وهي الصبر، والعفة، والشجاعة، والتوسط، والتوسط عبر عنه ابن القيم بلفظ العدل الذي يحمل الإنسان على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، وإنما كان للتوسط هذه المكانة الجليلة، لأن كل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق الحياء، انحرفت إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يطمع في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود، انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع. وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة ولحقارة ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقرة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللئام
وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما. وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم، وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة، انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضا بالدون.

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص وکلب وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة، وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود ورجم

بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرفهم.

وكذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطبي البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه^(١) وفي صفة نبينا ﷺ: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عشرة أحبه»^(٢).

المبحث التاسع أخلاق جميلة

١ - الصبر:

إن القرآن الكريم دفعنا وحثنا على الالتزام بمكارم الأخلاق، والحرص على التخلق بالخلق الحسن ومن أهم هذه الأخلاق الصبر.

إن الصبر خلق محمود، وهو فضيلة بين رذيلتين، فإذا انحرف الإنسان عن الصبر إما أن يقع في جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما أن يقع في غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع، والصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عني بها الكتاب العزيز في سورة المكية والمدنية.

يقول الغزالي^(٣) في كتاب الصبر والشكر من (ربع المنجيات) من كتاباه (إحياء علوم الدين) (ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً)^(٤).

(١) تهذيب مدارج السالكين (٦٦١/٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في صفة النبي ﷺ (٥٥٩/٥) رقم (٣٦٣٨).

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد المشهور بحجة الإسلام، له مائتي مصنف، ولد سنة ٤٥٠هـ، توفي ٥٠٥هـ، شذرات الذهب (١٠/٣)، وسير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٢).

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٥٥٧/٢).

وينقل العلامة ابن القيم في (مدارج السالكين عن الإمام أحمد قوله: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً) .

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر، إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر. فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية. فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر في الدنيا، لا تتحقق الآمال، ولا تنجح المقاصد، ولا يؤتي عمل أكله إلا بالصبر، فمن صبر ظفر، ومن عدم الصبر فلم يظفر بشيء لولا صبر الزارع على بذره ما حصد، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج، ولولا صبر المقاتل في ساحة الوغى ما انتصر، وهكذا كل الناجحين في الدنيا حققوا آمالهم بالصبر، استمروا المر، واستعذبوا العذاب، واستهانوا بالصعاب، ومشوا على الشوك، وحفروا الصخور بالأظافر، ولم يبالوا بالأحجار تقف في طريقهم، والطعنات تغرس في ظهورهم، وبالشراك تنصب للإيقاع بهم، وبالكلاب تنبح من حولهم، بل مضوا في طريقهم غير وائين ولا متوقعين مغضي الأعين على القذى، ساهحين الذبول على الأذى، متذرعين بالعزيمة، مسلحين بالصبر، وما أصدق قول الشاعر:

وقل من جدي أمر يحواله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر^(١)

والصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان:

نصف صبر، ونصف شكر، وقد ذكر في القرآن الكريم على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥).

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ

لَهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٧).

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

(١) انظر: الصبر في القرآن، للشيخ القرضاوي، حفظه الله، (١٥).

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

الخامس: إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ليست معية عامة، وهي معية العلم، والإحاطة كقوله:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٦٦). وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْن صَبْرْتُمْ لَهَوُ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦).

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَنبَلِّغُنَّكُمْ نَبَأَ مَنِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقِصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (البقرة: ١٥٥).

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ إِن نَّصَبْرُوا وَسَبْرُوا وَيَأْتُواكُم مِّن قَوْمِهِمْ هَذَا يُمدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (آل عمران: ١٢٥).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنَ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ (الشورى: ٤٣).

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة جزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت: ٣٥).

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبء أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبا: ١٩).

لا كسب للعبد فيه^(١).

وكان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الحب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختيار لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس^(٢).

والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات، فإن معصية فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. والصبر على طاعته ﷺ، والصبر عن معصيته: أكمل من الصبر على أقداره.

لأن صبر الطاعة والابتعاد عن المعصية، صبر اختيار وإيثار ومحبة، وصبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس سبباً عن فعله.

وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم ﷺ على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف، وبهذا يتضح أن هذا الصبر أكمل من الصبر على ابتلائه، والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره^(٣).

٢ - الحياء:

إن خلق الحياء فضيلة بين رذيلتين، فمن انحرف عن الحياء إما أنا يقع في الجراة والوقاحة، وإما أن يقع في العجز والخور والمهانة. وحقيقة الحياء، خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق^(٤).

ويحدث الحياء للعبد من ربه، إذا أيقن بأن الله عالم به، رقيب عليه، لا تخفى

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٥٦١/٢).

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٥٦٢/٢).

(٣) تهذيب مدارج السالكين: (٥٧٤/٢).

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٦٢١/٢).

عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وقد جاءت الأحاديث في فضل الحياء وحث المسلمين عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولًا لَأَمَّا اللَّهُ يَخْفَى﴾ (العلق: ١٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: مر برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال: «دعه، فإن الحياء من الإيمان»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»^(٣).

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٤).

وفي الترمذي مرفوعاً: «استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله، قال: ليس ذلكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»^(٥).

وقد بين ابن القيم رحمته الله: (أن قوة خلق الحياء وقلة الحياء على حسب حياة القلب من قوة وحياة أو موت وضعف، وكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم)^(٦).

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (٧/١٣٠، رقم ٦١١٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، (١/١٠، رقم ٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (٧/١٣٠، رقم ٦١٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (٧/١٣١، رقم ٦١٢٠).

(٥) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب (٢٤: ٤/٥٥٠، رقم ٢٤٥٨).

(٦) تهذيب مدارج السالكين: (٢/٦٢٠).

ومن علامات الشقاوة: قلة الحياء، وجمود العين، وقسوة القلب، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

أنواع الحياء:

وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جنائية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجنائية فمنه حياء آدم ﷺ لما فر هارباً في الجنة، قال الله تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا رب بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، على حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ﷺ، وأطالوا الجلوس عنده، فقام واستحي أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب ﷺ أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحغار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه ﷻ حين يسأله حوائجه، واحتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحغار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياها.

الثاني: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه، ومفاجأته له روعة شديدة.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح

عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة. وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان، فإنه يستحيي مع بذله.

حياء شرف نفس وعزة، وهذا له سببان:

أحدهما: هذا، والثاني: استحياءه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء اللوم، لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالتقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا هو أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحي من نفسه، فهو بأن يستحي من غيره أجدر^(١).

إن الصبر والحياء من ثمرات الإيمان الصحيح وتحقيق التوحيد لله رب العالمين.

٣ - التواضع:

إن التواضع فضيلة بين رذيلتين، فإذا انحرف العبد عن التواضع إما أن يقع في الكبر والعلو، وإما أن يقع في ذل ومهانة وحقارة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) أي سكيناً وقاراً متواضعين، غير أشربين، ولا مرحين ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرِّئَتِكَ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يُأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤) لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة (على) تضميناً لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول.

وقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة، قال

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢/٦٢٣).

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٢/٦٧٧).

عطاء ﷺ: للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩).

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»^(١).

وفي البخاري عن النبي ﷺ: «أن النار قالت: ما لي لا يدخلني إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم»^(٢).

من تواضع النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ، فتنتلق به حيث شاءت، وكان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم^(٣).

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ أو تحرم عليه النار، تحرم على كل قريب هين لين سهل»^(٤).

وقال ﷺ: «لو دعيت إلى ذراع - أو كراع - لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراعاً - أو كراعاً - لقبلت»^(٥).

وكان ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد،

-
- (١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر (٤/١٣٩٩ رقم ٤١٧٩).
 - (٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: وتقول هل من مزيد (٦/٥٦ رقم ٤٨٥٠).
 - (٣) تهذيب مدارج السالكين: (٢/٦٨٠).
 - (٤) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب (٤٥: ٤/٥٦٤ رقم ٢٤٨٨).
 - (٥) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من أجاب إلى كراع (٦/١٧٥ رقم ٥١٧٧).

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل ليف^(١).

من مواقف السلف في التواضع:

قال عروة بن الزبير^(٢) رضي الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها^(٣).

وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، ويقول: (طرقوا للأمير)^(٤) أي: وسعوا له.

ومر الحسن البصري على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه^(٥).

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عير بلالاً^(٦) رضي الله عنه بسوداه، ثم ندم، فألقى بنفسه، فحلف لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي^(٨).

وقال رجاء بن حيوة^(٩): (قومت ثياب عمر بن العزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨٠/٢).

(٢) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، ولد سنة ٢٢هـ، وتوفي عام ٩٣هـ.

(٣) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨١/٢).

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨١/٢).

(٥) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨١/٢).

(٦) هو جندب بن جنادة الغفاري أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كان خامس خمسة في الإسلام، كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوالاً للحق، توفي ٣٢هـ، سير أعلام النبلاء (٤٦/٢).

(٧) هو مولى أبي بكر الصديق، وهو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من السابقين الأولين الذين عذبوا في الله، شهد بدرًا، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم على التعيين بالجنة، وحديثه في الكتب، توفي سنة ٢١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣٤٧/١).

(٨) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨١/٢).

(٩) هو أبو المقدم الكندي الشامي التابعي الفقيه الوزير العادل كان شريفًا نبيلًا أفقه أهل الشام في عصره، من حسناته اختيار عمر بن عبد العزيز للولاية بعد سليمان وإقناع سليمان بذلك، توفي ١١٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٥٥٧٤).

درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة^(١).

روح التواضع الانقياد للحق: إن روح التواضع هي أن ينقاد العبد لصولة الحق، ويخضع له، ولا يتعالى عليه، وفسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٢).

فبطر الحق: رده وجحده. وغمط الناس: احتقارهم وازدرأؤهم، ومتى احتقرهم، وازدرأؤهم: دفع حقوقهم، وجحدها واستهان بها.

وركن التواضع الأهم: التواضع للدين، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً^(٣).

ولا يصح لعبد خلق التواضع حتى يقبل الحق ممن يحب وممن يبغض، فيقبله من عدوه كما يقبله من وليه، وكذلك قبول العذر ممن أساء، فإن خلق التواضع يجعل العبد يقبل المعذرة، حقاً كانت أو باطلاً، ويكل سريرته إلى الله، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه، فقبل أعتذارهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى^(٤).

وتمام التواضع: أن لا يرى العابد لنفسه حقاً على الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمتى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت، فالرب سبحانه لا لأحد عليه حق، ولا يضيع لديه سعي، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعده، أو نعموا فبفضله، وهو الكريم الواسع^(٥)
إن المتأمل في القرآن الكريم يجد ما من خلق حسن في ميزان الفضائل النفسية، أو الآداب الاجتماعية، أو السلوك الفردي إلا وقد حض عليه، وحشد له كل قوى

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨١/٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر (٣١٨/٤) رقم (١٩٩٩).

(٣) تهذيب مدارج السالكين: (٦٨٣/٢).

(٤) انظر: المرجع السابق (٦٨٧/٢).

(٥) انظر: تهذيب مدارج السالكين: (٦٨٧/٢).

النفس والعقيدة، وعباً حوله كل طاقات العبادة والأسوة، وبعث له كل حوافز التنفيذ، وحاطه بالبيان والتفصيل والتشريع، وجعله مسؤولة عامة للفرد والأمة والدولة والحكومة^(١).

وفي هذا المبحث ضربت ثلاثة أمثلة للأخلاق التي حث القرآن عليها من باب الاختصار، وإلا فإن الأخلاق التي حث عليها القرآن لا يكفيها مجلد ضخّم في شرحها وتفصيلها.

المبحث العاشر من الأخلاق الذميمة

يرى بعض العلماء أن الأخلاق الذميمة، بناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب، ومن هذه الأخلاق تنشأ جميع الأخلاق السيئة، ويوضح ابن القيم رحمته الله ذلك فيقول:

(ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب).

فالجهل يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

والظلم يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجعل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشدد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب يحمله على الكبر والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه.

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤١٦).

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق:

أخلاق مذمومة، وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمور، والأخلاق، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والجدة والفحش، والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً^(١). وهذا كلام نفيس، وفهم بليغ، يدل على فهم صاحبه لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

من الأخلاق السيئة التي نهى القرآن عنها:

١ - الظلم:

إن المسلم الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً لا يرضى لنفسه أن يكون ظالماً، ولا يقبل الظلم من أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾ مُهْطِينَ مَعْنَى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٥﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُجِبِّ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعُ الرُّسُلُ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٦﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٧﴾﴾ (إبراهيم: ٤٢ - ٤٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ (الشورى: ٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَعَلُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

وجاءت الأحاديث النبوية في الترهيب من الظلم بأنواعه الثلاثة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»^(٢).

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٦٥٩/٢).

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلة، باب دعوة الوالدين، (٤/٢٧٧ رقم ١٩٠٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه في مال أو عرض فليأتها فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات أخذت من سيئات صاحبه فطرحت عليه»^(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليجملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته»، ثم تلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢)^(٢).

وذكر العلماء أن أنواع الظلم ثلاثة هي:

١ - ظلم العبد لربه، وذلك يكون بالكفر به تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

ويكون بالشرك في عبادته تعالى بأن يصرف بعض عباداته إلى غيره، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

٢ - ظلم العبد لغيره من عبادة الله ومخلوقاته، وذلك بأذيتهم في أعراضهم أو أبدانهم أو أموالهم بغير حق.

قال صلى الله عليه وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».

٣ - ظلم العبد نفسه، وذلك بتدنيسها وتلويثها بآثار أنواع الذنوب والجرائم والسيئات من معاصي الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧).

فمرتكب الكبيرة من الإثم والفواحش هو ظالم لنفسه إذ عرضها لما يؤثر فيها من الخبث والظلمة فتصبح به أهلاً للجنة الله، والبعد منه.

ومن وسطية القرآن ترهيب الناس من ارتكاب الظلم بأنواعه، وبيان عاقبة الظلمة ومصيرهم الحتمي في الدنيا والآخرة، بضرب أمثلة للشعوب، والأمم والأفراد الذين انغمسوا في مستنقع الظلم الآسن، وكيف كان مآلهم ومرجعهم، وحث القرآن الكريم

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، كتاب القصاص يوم القيامة، (٧/٢٥١ رقم ٥٤٣٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: وكذلك أخذ ربك (٥/٢٥٥).

عباده المؤمنين على ترك الظلم بأنواعه، والابتعاد عنه والرجوع والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، بل حذر القرآن الكريم عباده المتقين من الدخول على الظلمة ومخالطتهم والركون إليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسِكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣) فيصيبكم لفتحها: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ (هود: ١١٣) أي ما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣) لا تمنعون من عذابه.

٢ - ذم خلق الكبرياء:

ومن وسطية القرآن ذم الأخلاق السيئة، وحث الناس على تركها وتخويفهم من فعلها، ومن أمثلة الأخلاق التي حذر القرآن من فعلها الكبرياء وجعلها رذيلة من الرذائل الاجتماعية لكونها تغرس الفرقة والعداوة بين الأفراد فتقضي على التعاون والمحبة بينهم.

والكبرياء لا تصرفنا عن محبة بعضنا البعض فقط، بل وتجعل إصلاح بعضنا لبعض أمراً عسيراً، وذلك بتعامي المتكبر عن نقائصه وعيوبه، وتقدير نفسه فوق قدرها، وصم أذنيه عن سماع كل حديث فيه نقداً بناء لشخصه، ويفرح لكل حديث فيه مدح وتملق من مادحيه، لأن من أعجبه نفسه أبى أن يسمع النصيحة من غيره فيكون ذلك حائلاً بينه وبين الاستفادة من علم العلماء واقتباس الفضيلة من الفضلاء فينزل إلى هوة من الجهل والضلال.

لهذا كان من سنة الله أن صرف قلوب المتكبرين عن سماع ما أنزله على رسله من البينات والهدى؛ لأن هؤلاء المتكبرين كتب الله عليهم الضلالة التي تؤدي بهم إلى غضبه وذلك من جراء كبريائهم، قال تعالى: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ آيَةٍ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (الأعراف: ١٤٦).

والقرآن يخبرنا أن المستكبرين كانوا أعصى الناس على الاستجابة لدعوة الرسل، لهذا حكى الله عن قوم نبيه صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَتَكُ صَلِيلًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (الأعراف: ٧٥ - ٧٦).

وهؤلاء قوم عاد استكبروا عن سماع هداية الله فكان جزاؤهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ (فصلت: ١٥-١٦).

لهذا توعد الله المتكبرين بالعذاب الأليم في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠) أي ليست النار كافية لهم سجنًا وموتلاً بسبب تكبرهم!!.

ولتساءل بماذا يفتخر المتكبر؟ هل بملاحظته وقوته؟ إن الجمال يزول، وأقل مرض يضعفه، وكل يوم يفعل الزمان فعله بجسده إلى أن يصبح بعد سن الشباب موضع الضعف والهرم، وإن تباهى بماله وغناه فليعلمن أن الموت لا يفرق بين الغني والفقير، وإن الإنسان سيترك كل ما يملك إلى غيره، لهذا جاءت وصايا القرآن تنهى عن الاختيال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) أي لا تمشي متبختراً كمشي الجبارين فإنك لن تخرق الأرض بمشيك وشدة وطئك، ومهما شمخت بأنفك فلن تبلغ الجبال ارتفاعاً.

ويقول تعالى في النهي عن التكبر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ (لقمان: ١٨).

أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً له واستكباراً والأحاديث في ذم خلق الكبر كثيرة، فعن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضاعف، لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»^(١).

وأشد الكبر الذي فيه من يتكبر على العباد بعلمه، ويتعاضم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، ومن طلب العلم للفخر والرياسة وبطر المسلمين فهذا من أكبر

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، (٧/١١٨ رقم ٦٠٧١).

الكبر، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر^(١).

٣ - ذم خلق العجب والغرور:

ومن وسطية القرآن في باب الأخلاق ذم خُلُق العجب والغرور والنهي عنهما، ولذلك تجد المسلم الصادق المخلص يحذر على نفسه وإخوانه من العجب والغرور، ويجتهد أن لا يكونا وصفاً له في حالة من الحالات إذ هما من أكبر العوائق عن الكمال، ومن أعظم المهالك، في الحال والمآل، فكم من نعمة انقلبت بهما نقمة، وكم من عز صيراه ذلاً، وكم من قوة أحوالها ضعفاً، فكفى بهما داءً عصالاً، وكفى بهما على صاحبهما وبالاً، فلذا حذرهما المسلم وخافهما، ولهذا جاء القرآن الكريم بتحريمهما، بالتحذير والتنفير منهما. قال الله تعالى: ﴿وَعَزَّكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد: ١٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ (الانفطار: ٦).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة: ٢٥).

والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

- ١ - أعجب إبليس - لعنه الله - بحاله، واغتر بنفسه وأصله فقال خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فطرده الله من رحمته، ومن أنس حضرة قدسه.
- ٢ - أعجبت عاد بقوتها واغترت بسلطانها وقالوا من أشد منا قوة فأذاقهم الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
- ٣ - أعجب أصحاب رسول الله ﷺ في حنين بكثرتهم وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة: فأصيبوا بهزيمة مريرة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين^(٢).

ومظاهر الغرور والعجب كثيرة ومتنوعة منها:

(١) انظر: كتاب الكباير (٨٧).

(٢) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري (٢٤٤).

- ١ - العلم: قد يعجب المرء بعلمه، ويغتر بكثرة معارفه فيحمله ذلك على عدم الاستزادة، وعلى ترك الاستفادة، أو يحمله على احتقار غيره من أهل العلم، واستصغار سواه وكفى بها هلاكاً له.
 - ٢ - في المال: قد يعجب المرء بوفرة ماله، ويغتر بكثرة عرضه فيبذر ويسرف، ويتعالى على الخلق، ويغبط الحق فيهلك.
 - ٣ - في القوة: قد يعجب المرء بقوته ويغتر بعزة سلطانه فيعتدي ويظلم، ويقامر ويخاطر، فيكون في ذلك هلاكه ووباله.
 - ٤ - في الشرف: قد يعجب المرء بشرفه ويغتر بنسبه وأصله فيقعده عن اكتساب المعالي، ويضعف عن طلب الكمالات فيبطيء به عمله، ولم يسرع به نسبه، فيحقر، ويصغر، ويذل، ويهون.
 - ٥ - في العبادة: قد يعجب المرء بعمله، ويغتر بكثرة طاعته، فيحمله ذلك على الإدلال على ربه، والامتنان على منعمه، فيحبط عمله، ويهلك بعجبه، ويشقى باغتراره، وعلاج هذا الداء في ذكر الله تعالى وعلم العبد بأن ما أعطاه الله اليوم من علم، أو مال، أو قوة أو عزة، أو شرف قد يسلبه غداً لو شاء ذلك، وأن طاعة العبد للرب مهما كثرت لا تساوي بعض ما أنعم الله على عبده، وأن الله تعالى لا يدل عليه بشيء، إذ هو مصدر كل فضل، وواهب كل خير^(١).
- قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ﴾ (لقمان: ٢٠).

وبهذا نكتفي بضرب الأمثلة في الأخلاق السيئة، وبيان أن الله نهى عنها في كتابه وأمر الناس بالابتعاد عنها، وما بينته باختصار موجز على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

إن وسطية القرآن في باب الأخلاق تتضح في ذمه وتحقيره وتنفيره من الأخلاق السيئة وسلط على هذه الأخلاق السيئة قوى النفس والاعتقاد وأطلق عليها أيضاً قوى الأمة والسلطة لمطاردة الأخلاق السيئة ومنعها بالحكمة والموعظة الحسنة وبقوة السلطان الذي خوله الله صلاحيات في ذلك للقضاء على كل خلق ذميم، من خيانة، وغدر،

(١) منهاج المسلم (٢٤٥).

واستبداد، وظلم وكذب، وشهادة زور، وإسراف، وفحش، وكبر وغرور، وفخر، ورياء، وبطر، وهمز ولمز وبخل... إلخ^(١).

إن المرء ليعجب من وسطية القرآن في باب الأخلاق كيف ضم القرآن كل هذه الأخلاق من حسنها وقبيحها، وكيف رغب في حسنها ورهب في قبيحها على وجه من التفصيل وكأن غرضه الوحيد هو هذا الباب من كثرة ما أبرزها، وصرف فيها القول، وضرب فيها الأمثال.

* * *

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤١٧).